8

برلين ضاعت في سويسرا

ضياع وحيرة

المعزل والاستخبارات

استخبارات أميركا ومرحلة الحرب النهائية

اضطراب وعي هتلر

حلقات بحث التاريخ المعاصر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

ضياع وحيرة

كان صراع الاستخبارات في أوروبا بين سنتي 1937 ـ 1945 نسيج ذاته في تاريخ العالم. وقد ترتبت غرابته الخاصة ليس فقط على حجم «الأجهزة» غير المسبوق، بل كذلك على منهجية عملية تحولت إلى علم حقيقي، كانت له جوانب مظلمة بالطبع، لم تقتصر فقط على وفرة المعلومات، التي يتم جمعها، بل شملت قبل كل شيء نهاية الحرب وفصل «حصن الألب»، الذي قيض له أن يفضي إلى أشكال مختلفة من الضياع والحيرة، لأسباب بينها اشتغال كثرة كاثرة من «المخبرين»، المكلفين وعير المكلفين، في هذه الأعمال، وقيامهم «بتوريد المعلومات».

لنقل منذ البداية: إن الاستخبارات الحليفة وقعت مع «حصن الألب» في الغلطة الأكثر شؤما في تاريخها. فقد طاردت شبحا لم ينشأ عن «ألعاب استخبارية» ما، بل نجم أول الأمر عن إشارة إلى احتمال أنه من سويسرا. أن تكون سويسرا مصدر هذه الإشارة، هو أمر سهل التوضيح، أما القضية التي انصبت عليها، والبواعث التي كانت وراء «اللعبة اللاسلكية» ولفتت الأنظار إلى «حصن الألب»، فهي شيء لن يمكن إيضاحه على الأرجح، لأن جميع من شاركوا فيه، وكانوا مستعدين اليوم ربما لقول الحقيقة، قد فارقوا الحياة.

عرض تاريخ «حصن الألب» مرات متعددة[1]، لكنه عرض دوماً كحدث معزول، ومن دون تحليل دقيق للمعلومات الاستخبارية حوله، وحول بواعثه، ومن دون عرض نتائجه بالنسبة للسياسة الدولية بصورة خاصة. خضعت الاستخبارات الغربية في نصف العام الأخير من الحرب العالمية الثانية أكثر فأكثر لسحر أسطورة «حصن الألب»، وبدأت خرافتها تملي، بدءا من نهاية آذار/ مارس سنة 1945، قرارات قائد القوات الحليفة الأعلى في أوروبا، الجنرال أيزنهاور، الذي بدلاً من أن يتقدم نحو برلين، كما كان التخطيط المحكم يتطلب، تخلى عنها وانعطف بالكتلة الكبرى من جيش أميركا نحو الجنوب والجنوب الشرقي، ليحطم بقوته المتفوقة آخر مقاومة يائسة مزعومة للنازيين. في هذه الأثناء، كان الأميركيون قد احتلوا رأس جسر عبر نهر الإلبه ووطدوه، وكانت برلين يومي 12 و 13 نيسان/ أبريل على بعد يومين بالدبابات، فلم يكن على أيزنهاور غير مد يده لأخذها، خاصة بعد خبرة الأسبوعين الأخيرين، التي بينت كم ضعفت مقاومة الألمان للحلفاء بعد إخلاء حوض الرور وانتحار المارشال مودل، وكم كان قتال وحداتهم، التي لا تزال سليمة بعض الشيء، شرسا في الشرق.

ليس تاريخ «حصن الألب» ذاته غير واحدة من شناعات الحرب، التي ضللت كل من تعامل معها، من أيزنهاور إلى هتلر، الذي أعطى الأمر ببنائه في شهر نيسان/ أبريل، إلى بورمان، الذي كان على علم بهذه الفرصة الاخيرة منذ أيلول/ سبتمبر سنة 1944. وعلى كل حال، فقد تعلق الأمر على هذا الجانب بمهزلة كان المرء يستطيع أن يستمع إلى ضحك شيطاني وراءها، وتعلق على الجانب الآخر بمأساة تاريخية عالمية، جعلت السلام الحقيقي مستحيلا، وشطرت غرب ألمانيا إلى قسمين.

(1) قبل كل شيء لدى رودني مينو، وكذلك راوخشتاينر، ص 239--244.

عند «إلقاء نظرة عامة على سائر الظروف» (كلاوزيفيتز)، تلفت النظر واقعة مهمة هي أنه بينما كان أيزنهاور ينصرف عن برلين كهدف رئيس، لأسباب عسكرية صرفة، كان اللاعب المقابل ستالين يقوم بكل ما في وسعه للإيحاء بقلة اهتمام الاتحاد السوفياتي بها، ولاستثارة مزيد من التركيز الأميركي على «حصن الألب»، كما سنبين بالتفصيل فيما بعد.

من أين، ومتى وكيف ولماذا جاءت الإشارة الاستخبارية الأولى إلى احتمال وجود «حصن الألب»؟. علينا طرح هذه الأسئلة المبدئية قبل أي بحث. إن مصدر المعلومة محدد بوضوح: لقد جاءت من سويسرا، وبوسعنا تحديد اسم صاحبها: إنه «المفوض الخاص» للرئيس روزفلت وعضو مكتب المخابرات الاستراتيجية «آلن ولش دالس»، الذي جاء إلى سويسرا المحايدة، المطوقة تطويقا تاما آنذاك من قبل قوى المحور، في تشرين الثاني سنة 1942 «لحظة بدأ مصير الحرب يتحول لمصلحة الحلفاء». كتب دالس في كتابه «مؤامرة في ألمانيا»[1] يقول: كمنت إحدى المهام التي طرحتها واشنطن عليَّ في معرفة أكبر قدر ممكن من المعلومات حول الحركات السرية المعادية للنازية داخل ألمانيا». وقد كسب دالس بعد حين مصدرين مهمين للمعلومات هما: هانس بيرند جيزيفيوس، أحد أهم الرجال في حلقة المقاومة المحيطة باللواء بيك، ونائب القنصل في قنصلية ألمانيا العامة في زيوريخ. في حين يعلمنا بالمصدر الثاني هانس رودلف كورتس، الناطق في حينه باسم الجيش السويسري، الذي ذكر ما يلي في دراسته «سويسرا كمركز معلومات»[2]: «أقام دالس في سويسرا علاقات مع شخصيات نافذة، وكان يعقد لقاءات دورية خاصة مع الرائد هاوسمان، يتم خلالها تبادل الأفكار حول الوضع.

(1) ألن ولش دالس: مؤامرة في ألمانيا. نيويورك 1947. الطبعة الألمانية، كاسل 1949.
(2) كورتس، ص 59.

هذه المداولات، التي جرت دوماً على وجه التقريب في منزل الناشر الزيوريخي هانس أوبرخت، كانت ضربا من تقويم مشترك للوضع، عرفت الديبلوماسي الأميركي بطريقة النظر الأوروبية إلى الأمور». يجب علينا اعتبار هذه الجملة نوعا من مفتاح. صحيح أن الأمر يتعلق هنا أيضاً بتخمينات، لكننا نؤمن بشرعيته، ما دام العارفون بحقيقته قد ماتوا جميعهم.

كان تقويم الوضع الكبير خلال سنوات الحرب الأخيرة مختلفا في أوروبا عنه لدى الكتلة الأكبر من الأميركيين. كان الأوروبيون، بمن فيهم السويسريون، يريدون أن لا يكسب السوفيات الروس نفوذا كبيراً في المجال الغربي. وكانت لديهم، على العكس من روزفلت وأتباعه، تحفظات قوية على ستالين خاصة، رفض أيزنهاور الاعتراف بها عشية نهاية الحرب. وبما أن القيادة السوفياتية كانت تعرف هذا، فإنها لم تترك وسيلة إلا واستخدمتها لتركيز اهتمام الأميركيين على «حصن الألب»، فتعينت استراتيجيتها في المرحلة الحاسمة من الحرب العالمية الثانية بسعيها هذا. انفرد الإنجليز، كأوروبيين، بكشف خطأ قرارات حليفهم الفائق القوة، ورضخوا لضغوطه الفائقة الشدة ـ رغم ما كانوا يعرفون ـ مثلما فعل المارشال مانشتاين حيال ضغوط هتلر.

انفرد دالس في سويسرا بتبني وجهة النظر الأوروبية، ويتضح من كتابه «مؤامرة في ألمانيا» أنه كان متعاطفا مع ألمانيا الأخرى[1]، وإن كان لم ير إمكانية لمساعدتها. وقد اعتقد أن صيغة كازابلانكا القدرية عن «الاستسلام غيرالمشروط» كانت خطيئة سياسية وبسيكولوجية جسيمة، أجبرت قسوتها الألمان على التضامن الطوعي في ما بينهم، فليس مستبعدا أن تكون برقيته خريف سنة 1944 أرادت تنبيه «الألمان الآخرين» (غيرالنازيين ـ المعرب) إلى

(1) دالس، المرجع السابق.

إمكانية أرادت عرضها عليهم، تمكنهم عمليا من تفادي خطر استسلام غير مشروط.

من المؤكد أنه كانت لا تزال هناك في 1944 بعض الفرص لانتهاج استراتيجية دفاعية عقلانية: فقد كانت هناك تحصينات ثابتة دائمة وأخرى في طور البناء على الطرف الجنوبي من الألب، وكذلك في التيرول الجنوبي إلى برينر. وكان واضحا أيضاً أنه يتم منذ خريف 1944 نقل مراكز خدمة متزايدة العدد من عاصمة الرايش الآفلة إلى وسط ألمانيا ثم إلى باڤاريا - وأخيرا، كان سيتفق تماماً مع صورة هتلر أن يموت في بيرشتسجادن، بعد أن يكون قد أطلق آخر رصاصة. وكان مؤكدا إلى حد ما، أو ممكنا ومحتملا، أن بعض مستودعات ومخازن المواد الغذائية قد نقلت إلى الألب. ولكن هل كان لدى القوات المسلحة الألمانية القدرة على إقامة معزل آمن، يستحق هذا الاسم؟. وهل كانت مؤهلة لإبداء مقاومة منظمة فيه، تطيل أمد الحرب من خلالها؟. هذا السؤال الرئيس لم يطرحه ضباط الاستخبارات في المقرات الرئيسة، ولم يتحول إلى موضوع لعمليات استطلاع منهجية، فوصلوا إلى قرارات خاطئة تماما، وتاليا إلى أخطاء استراتيجية يستحيل تصحيحها، وتجاهلوا قبل هذا وذاك أولوية العوامل السياسية المطلقة في المرحلة النهائية من الحرب العالمية الثانية، أو أزاحوها جانبا.

تحولت الاستخبارات السرية الغربية إلى ضحية للمضاربات، وخصت مخاوفها مما قد يفعله قادة النازية في اللحظة الأخيرة بفسحة أكبر من تلك التي خصصتها للتأكد على أرض الواقع من الأنباء والإمكانات، حيث كان يجب أن يوجد مرة أخرى جواسيس من الطراز التقليدي في المكان عينه، مدربون عسكريا ولا يسمحون لأحد بخداعهم، ويستعلمون حتى أدق التفاصيل عن الواقع الفعلي لـ«حصن الألب»، وعن كيفية إمداده بالأسلحة

والمؤن والذخائر، وحال القوات الألمانية الموجودة فيه. عندئذ، كانت قيادة القوات الحليفة في أوروبا وفي البنتاغون ستعرف أن الأمر لم يكن يتعلق بواقع، بل بوهم استراتيجي، وستجد حتما عددا كافيا من الكشافين المدربين عسكريا في المقاومة النمسوية المتصاعدة. وكانت ستنحي الشبح جانبا، وستقبل وجهة النظر البريطانية: وفيها أن برلين هي القضية الرئيسة.

إنذار الصحافة العالمية

نستطيع اعتبار 3 شباط/فبراير سنة 1945 يوم تعبئة الرأي العام الأميركي العامة في قضية «حصن الألب». ففي هذا اليوم قد نشرت النيويورك تايمز، الجريدة التي يعتقد رأي سنة واسعة الانتشار أنها أكثر صحف العام معرفة، مقالة تحذيرية عن الموضوع، لم تكن تقريراً كتبه مراسل أوروبي، بل موقف خبير الجريدة العالمية الأول في الشؤون العسكرية هانسون بالدوين[1]، الذي تنبأ، أو رأى من واجبه أن يتنبأ، باستمرار القتال في ألمانيا بعد سقوط برلين، وزعم أنه سيتركز في منطقة الألب، الذي أعدته الحكومة النازية ليكون معزلا قوميا آمنا وجهزته بكل ما يلزم. بذلك تلقى الجنرال مارشال في البنتاغون، والجنرال أيزنهاور في القيادة الحليفة ما يصح تسميته طلقة أمام الرأس، لأنهما كانا في مواجهة صوت يقرر معتقدات الرأي العام في أميركا، لا يسعهم تجاهله ببساطة. يستطيع المرء أن يتصور النقاشات التي أطلقتها المقالة في المقرات الغربية الرئيسة، وأن يفكر أيضاً بدوائرها التي انتشرت في صحافة العالم المتعاطفة مع الحلفاء. لقد تسببت رمية حجر في إطلاق كرة ثلج، فبدأت الجرائد الكبيرة تكتب حول «حصن الألب»

(1) مينو، ص 34.

المزعوم، كأنه صدرت إليها كلمة سر. وأذاعت وكالة الاسوشييتدبرس من موسكو تصريح دوائر عسكرية سوفياتية تقول إن الألمان يعدون لدفاع شديد عن الألب[1]. وأخبرت «الديلي ووركر» جريدة الشيوعيين الأميركيين اليومية، عن هجمات ألمانية مسعورة لفك الحصار عن بودابست، لخوفهم من هجوم روسي على «حصنهم الألبي». وأضافت إن العمليات قرب ستراسبورج مكرسة للدفاع عن الجبهة الأمامية لحصن الألب ضد الغرب[2]. وكانت المجلة الأميركية «كولييه» قد كتبت قبل فترة عن الاستعدادات لحرب العصابات في سالوكامرجوت يقوم بها كالتنبرونر، رئيس مكتب أمن الرايش الألماني الرئيس. وامتلأ عدد كبير من الصحف الغربية والصديقة للولايات المتحدة بتقارير مماثلة.

اتخذت الصحافة الإنجليزية موقفا يتسم بالتحفظ، وكانت أكثر شكا في ما يتعلق بمعزل الألب من الأميركيين، الاسرع إلى تصديق كل ما يصل إلى أسماعهم. انفردت المجلة الاسبوعية الإنجليزية «سفير» بكتابة مقالة في شباط/ فبراير سنة 1945 حول «حصن الألب»، قالت فيه بين أشياء أخرى[3]: «يتخذ الألمان استعدادات عسكرية كبيرة لجعل هذا المعزل في وضع دفاعي قوي، وخاصة منه المنطقة الجبلية، التي تمتد من أرلبرج إلى سالزبورج، حيث تفرغ القطارات المدافع والوقود والمواد الغذائية والذخيرة في لانجن على أرلبرج، وفي إيمنشتات. وهناك ما يكفي من الاسباب للاعتقاد بأن الارض الجبلية الواسعة تحول نفسها إلى قلعة حربية، يأمل النازيون المتعصبون أن يتمكنوا من الصمود فيها، إلى أن تعلن أوروبا المتعبة من الحرب استعدادها لهذا الشكل أو ذاك من التفاوض. هكذا تحول في شباط/

(1) المصدر ذاته، ص 30.
(2) كونج، ص35.
(3) مينو، ص 34.

فبراير من سنة 1945 شبح «حصن الألب» إلى كابوس أقلق العالم الغربي، وخاصة منه أميركا، بينما أكب جهاز الاستخبارات المتخصص بالعدو على هذه المشكلة، تحت ضغط الرأي العام.

obeikandl.com

الفصل الثاني

المعزل والاستخبارات

ثمة وفرة من المعلومات في ما قاله كورنيليوس رايان: العارف الممتاز بسنوات الحرب الأخيرة، عن الصورة الاستخبارية، التي كانت لدى قيادة القوات الحليفة في أوروبا خلال الأشهر الأولى من سنة 1945، عن «حصن الألب»[1]. وكان هناك في غرفة الخرائط الواسعة، وهي أقرب الغرف إلى مكاتب أيزنهاور، خريطة كبيرة تغطيها إضافات ملونة كثيرة اجتذبت اهتمام القائد الأعلى بصورة متكررة. إنها كانت خريطة الوضع، التي رسمها بعناية وحرص جهاز الاستخبارات، وكتب عليها «الحصن القومي بحسب تقارير العملاء». أظهرت الخريطة المنطقة التي تبلغ نحو 35 الف كيلومتر مربع، وتشمل الألب البافارية وأقساماً من التيرول وسالزبورج، فضلا عن الألب الإيطالي الشمالي، وجعلت مركزها مقر الفوهرر الرئيس في أوبرسالزبورج و«عش النسر» في بيرشتيسجادن. «كانت الخريطة مغطاة بكاملها بعلامات حمراء، تبين أنواع المرافق الدفاعية المختلفة، ومستودعات الذخيرة، والوقود، ومخازن الغازات السامة، والمواد الغذائية، ومحطات الإرسال الإذاعي، ومولدات الطاقة، والقواعد العسكرية المزودة بأماكن لإيواء الجنود، والمراكز القتالية والتحصينات ـ من مواقع المدافع المسلحة بالاسمنت إلى الملاجئ الإسمنتية العملاقة ـ وحتى المصانع تحت الأرضية،

(1) رايان، ص 156 وما يليها.

الحصينة ضد القنابل». وكانت تضاف يوميا علامات جديدة إلى الخريطة. صحيح أنها كانت تحمل جميعها ملاحظة تقول «معلومات غير مؤكدة»، إلا أن أحدا في قيادة القوات الحليفة في أوروبا لم يشك بوجود «حصن الألب»، بل إن جهاز الاستخبارات ما انفك يتلقى تقارير تبدو خليقة بالتصديق، تقول إن هتلر والقادة النازيين، الذين انكفأوا شأن كالتنبرونر إلى الألب، سيدافعون إلى آخر طلقة عن الحصن القومي، وإنهم سيموتون فيه، إذا تطلب الأمر. بدورها، اكتسبت قاعدة عمليات حرب العصابات المحتملة في فيرفولف أهمية خطره، وفق تقارير كثيرة.

كان البنتاغون في واشنطن أشد تأثرا بهذه المعلومات من القيادة الحليفة في اوروبا: لا شك في أنه كان للتقارير المتواترة، التي كانت ترد من «مكتب الاستخبارات الاستراتيجية» في سويسرا، إسهامها الخاص في ذلك. وزاد الطين بلة أنه صدرت في الثاني عشر من شباط/فبراير دراسة تلوم من لا يولون اهتماماً خاصا للحصن النازي الأخير، كما صدر توجيه يلفت أنظار قادة الجبهة وصولا إلى قادة الفرق إلى خطر مقاومة ألمانية أخيرة يائسة في الألب. ونفخ رجال الاستخبارات العاملون في سويسرا في هذه النار خلال الفترة الأخيرة، على حد قول رايان، الذي كتب يقول: «أرسل عملاء الحلفاء في سويسرا يوم السادس عشر من شباط/فبراير تقريراً إلى واشنطن، مصدره ملحقون عسكريون محايدون في برلين، يقول[1]: يعد النازيون أنفسهم من دون أي شك لقتال قاس، يريدون خوضه انطلاقا من «حصن الألب»، ستكون قواعد متصلة بعضها ببعض عبر سكك حديد تحت أرضية، تضم مخزوناً يكفي أشهراً كثيرة، ويحوي أفضل الذخائر وكل ما لدى الألمان من غازات سامة على وجه التقريب. أما الأشخاص، الذين شاركوا

(1) المصدر ذاته، ص 157 وما يليها.

في بناء المرافق السرية، فسيكون مصيرهم جميعهم القتل، بمن في ذلك المدنيون، ممن سيكونون هناك عند بداية المعارك». حسب توجيه البنتاغون هذا، ظهر في النصف الثاني من آذار/مارس سنة 1945 شبح «حصن الألب» في جميع تقويمات الوضع الميداني على وجه التقريب، التي قام بها الجيش الأميركي. وهكذا، بدا المحلل الرئيس للاستخبارات المتخصصة بالعدو لدى الجيش السابع الأميركي، العقيد ويليام كوين، قانعا أشد القناعة أن هتلر يعد لمعزل قومي هناك براهين دامغة على وجوده. وقد قرأ رئيس شعبة العمليات في قيادة القوات الحليفة الجنرال بول هذا التحليل يوم 3 نيسان/أبريل ووجده معقولا تماماً، رغم تأكيد استخبارات مجموعة الجيش السادس الحليفة أن المستلزمات المادية والبشرية لـ«حصن ألب» قد دمرت وانتهى أمرها، بقوة الوقائع العسكرية: أي هزائم الألمان الدائمة. بدوره، بقي رجل الاستخبارات الأعلى لدى القيادة الحليفة، الجنرال المعروف جداً من قبلنا كينيث سترونج، على شكوكه في مسألة الحصن.

مقاومة بريطانية

كان جهاز الاستخبارات البريطاني الوحيد الذي بقي بعيدا عن هذه التشويشات خلال أشهر الحرب الأخيرة. لقد اتخذ سياسة انتظارية وحافظ عليها، فلم يحول القائد الأعلى لمجموعة الجيش الحادي والعشرين المارشال مونتغمري عينيه لحظة واحدة عن الهدف السياسي النهائي للحرب. وقد كتب في مذكراته[1]: «لم يفهم الأميركيون أن من غير المجدي كسب الحرب عسكريا، إن كنا سنخسرها سياسيا. لقد كان علينا تحمل نتائج وجهة النظر الغريبة هذه من يوم استسلام الألمان، للعلم، فإننا نتحملها اليوم أيضاً.

(1) المرجع ذاته، ص 373.

ليست الحرب غير أداة للسياسة. وما إن تظهر إمكانية كسبها عسكريا، حتى يصير على وجهات النظر السياسية التأثير في مجرياتها. وقد كان واضحا في خريف سنة 1944 أن الطريقة التي تعالج بها الأمور ستترك آثارا تتجاوز كثيراً نهاية الحرب، وكان لدي آنذاك الانطباع بأننا كنا على أفضل طريق يفضي إلى «تبديد» القضية، وأعتقد أننا فعلنا هذا حقا». ثمة حافز بدد نتائج نهاية الحرب بالنسبة إلى الحلفاء الغربيين وتاليا بالنسبة إلى العالم الحر. إنه شبح «حصن الألب» أو بقول أدق: التأثير الذي كسبه هذا الشبح على الاستراتيجية النهائية للحرب العالمية الثانية في أوروبا. فكيف حدث هذا؟. يقول المارشال البريطاني اللاحق في مذكراته[1]: «بعد عبور الراين، ناقشت خططنا العملياتية المستقبلية مع أيزنهاور، خلال محادثات كثيرة. كنت أرى على الدوام أن برلين هي الهدف الرئيس، فهي مركز ألمانيا السياسي، فإن تمكنا من بلوغها قبل الروس، أصبحت الأمور أسهل بالنسبة لنا في السنوات التالية للحرب. ونحن نتذكر أن أيزنهاور تبنى في رسالته إلي بتاريخ 15 أيلول/ سبتمبر 1944 رأيي حول الأهمية الكبرى للعاصمة الألمانية، وقال: «إن الهدف الرئيس هو طبعا برلين». وليس هناك أي شك من وجهة نظري في أنه يجب علينا استخدام كامل قوتنا وجميع وسائلنا من أجل تحقيق تقدم سريع نحوها». لماذا غير أيزنهاور رأيه، وغدت برلين فيما بعد غير مهمة في نظره؟. ماذا جرى داخله منذ عبر الحلفاء الراين بهجومهم المباغت على جسر ريماجان يوم 7 آذار/ مارس 1945؟. نحن نعرف اليوم أن الأمر الذي حسم موقفه كان أرجحية وجهات النظر العسكرية، أو بقول آخر: أولوية الاستراتيجية العسكرية على السياسية. من جانبها، دعمت واشنطن موقف القائد الأعلى، لأن القيادة السياسية العليا للولايات المتحدة أخفقت بدورها،

(1) المرجع ذاته، ص 371 وما يليها.

ليس فقط بسبب الموت المفاجئ للرئيس روزفلت يوم 21 نيسان/أبريل 1945. كتب مونتغمري[1] في مذكراته: «لو أن القادة السياسيين الغربيين مارسوا قيادة الحرب العليا بصورة صحيحة، وأصدروا توجيهات ملائمة إلى أعلى القادة العسكريين، لكان باستطاعتنا احتلال المدن الثلاث (برلين، فيينا، براغ) قبل الروس». لم يكن هناك توجيهات كهذه، وعجز تشرشل، الذي كان على صواب، عن فرض رأيه في مواجهة الأميركيين. بذلك نشأ فراغ في التصور الاستراتيجي، استطاع شبح «حصن الألب» التغلغل إليه، لفرض سحره بقوة متزايدة على الواقع. بالإضافة إلى أن ستالين عمل عن وعي لترسيخ هذا الهدف، كما سنرى لاحقا.

بلغت الأمور نهايتها في الحادي والثلاثين من آذار/مارس سنة 1945، حين أرسل أيزنهاور برقية إلى مونتغمري تقول في جملتها الأخيرة: «لا بد أنك لاحظت أنني لم أذكر برلين إطلاقا. هذا المكان ليس في رأيي غير مفهوم جغرافي، وأنا لم أهتم يوما بأشياء كهذه. إن هدفي هو إبادة قوات العدو المسلحة وكسر قدرته على المقاومة». يعلق مونتغمري، كاستراتيجي يفكر سياسيا، على ذلك قائلا: «لقد ضاعت برلين منا في آب/أغسطس من سنة 1944، عندما أهملنا بعد انتصار النورماندي وضع خطة عملياتية عاقلة». بدلاً من وضع خطة كهذه، برز لدى أيزنهاور ومارشال بصورة حتمية تقريبا ذلك الذي اخترع اسطورة «حصن الألب». وبالمناسبة، لقد فعلت موسكو وفعل ستالين شخصيا كل شيء، من أجل تعزيز إيمان الأميركيين بقراراتهم الخاطئة.

2 المرجع ذاته، ص 372.

ستالين يخدع أيزنهاور

أرسلت يوم 28 آذار/ مارس الساعة 16 برقية مشفرة إلى موسكو[1]، كانت رسالة شخصية من أيزنهاور إلى المارشال ستالين بصفته القائد الأعلى للحلفاء السوفيات، يخبره فيها عن نواياه ويقترح أن تتحد القوات المسلحة الأميركية مع الجيوش السوفياتية عند خط أيرفورت / لايبزيج / درسدن، لتشق قوات ألمانيا المسلحة إلى قسمين. «إنني عازم على توجيه قوتي الضاربة الرئيسة إلى هذا الخط. وأرى أن من الضروري، لتحقيق اتحاد سريع قدر المستطاع مع قواتكم، شن هجوم جديد في منطقة ريجنسبرج / لينز، يستهدف في الوقت نفسه الحيلولة دون تعزيز المقاومة الألمانية في الحصن الألماني الجنوبي». وقد كتب أيزنهاور بالمعنى ذاته إلى مارشال ومونتغمري.

عبرت الأركان العامة الأميركية، أي البنتاغون، يوم السبت، الحادي والثلاثين من آذار/ مارس عن ثقتها التامة بأيزنهاور. لكن تشرشل كان له رأي مختلف: فقد أرسل قبل الساعة 19 بقليل برقية إلى القائد الأعلى في أوروبا يقول فيها[2]: «إذا كان العدو لا يستطيع الصمود لفترة طويلة بعد، حسب ما يبدو أنكم تعتقدون... فلماذا لا نعبر الإلبه ونتقدم بعيدا قدر الإمكان نحو الشرق؟. إن هذا سيكون على قدر عظيم من الأهمية سياسيا، بعد أن تأكد أن الجيش الروسي سيحتل فيينا ويقتحم النمسا. إذا كنا سنترك برلين بمحض اختيارنا للروس، مع أنها في متناول أيدينا، فإن هذا سيعزز اعتقادهم بأنهم قاموا بكل شيء بمفردهم، بالمناسبة، لم تفقد برلين أهميتها العسكرية، فكم بالحري أهميتها السياسية... وما دامت في يد الألمان، فإنها تكون من وجهة نظري أهم نقطة في ألمانيا». هذا ما كان يعرفه ستالين أيضاً ـ وقد

(1) رايان، المرجع السابق، ص 160 وما يليها.
(2) المرجع ذاته، ص 18.

تصرف بما يتفق معه، وعلى طريقته. طبيعي أن رسالة أيزنهاور أرضته، وأنه فعل كل ما يلزم لإبعاده عن برلين، ودعم خططه ونواياه[1]. وقد أخبر ديم، سفير أميركا، وآشر، سفير بريطانيا، اللذين نقلا إليه رسالة أيزنهاور، أنه يعتقد بدوره أن المقاومة الأخيرة، التي سيبديها العدو، ستتركز في جنوب تشيكوسلوفاكيا وبافاريا. وأردف أنه سيتحدث عن أهدافه العملياتية الخاصة بعد مناقشتها مع قادة الجبهات. لكنه كان قد قرر في الواقع الانتقال بالسرعة الممكنة إلى الهجوم الحاسم، واحتلال برلين بالجيش السوفياتي بمفرده، فكان في مصلحته، إذن، أن تتحول كتلة الجيش الأميركي نحو الجنوب والجنوب الشرقي، لكسر المقاومة الأخيرة في «حصن ألمانيا الجنوبي». كانت السرعة مطلوبة، وقد طلب ستالين، بعد محادثته مع السفيرين، حضور مارشالي الاتحاد السوفياتي جوكوف وكونييف إلى موسكو فورا، ليتدارس معهما عملية احتلال عاصمة الرايش.

بعد يومين، أبرق ستالين إلى أيزنهاور[2]: «تلقيت برقيتكم بتاريخ 28 آذار/ مارس. إن خطتكم، التي تستهدف شق القوات الألمانية عبر الاتحاد مع القوات السوفياتية المسلحة، تتفق تماماً مع خطة القيادة السوفياتية العليا». وكان ستالين موافقا أيضاً على أن يتم الاتحاد في منطقة لايبزيج / دريسدن، لأن «القوات المسلحة السوفياتية ستنفذ هجومها الرئيس في هذا الاتجاه». أما موعد الهجوم، فذكر «النصف الثاني من أيار/ مايو تقريبا». وبرلين؟. قدم ستالين نفسه في صورة من لا تهمه برلين: «لقد فقدت برلين أهميتها الاستراتيجية السابقة»، وغدت قليلة الأهمية إلى درجة أن القيادة العليا السوفياتية ستستخدم قوات من الخط الثاني في الهجوم عليها.

(1) المرجع السابق، ص 18.
(2) المرجع ذاته، ص 194.

obeikandl.com

الفصل الثالث

جهاز الاستخبارات الأميركي ومرحلة الحرب النهائية

بعد التخلي عن برلين، اتخذ أيزنهاور في نهاية آذار/ مارس سنة 1945 قراراً بتقدم الكتلة الرئيسة من الجيوش الأميركية في اتجاه بافاريا والنمسا. ذلك كان قرار الحرب الأخير الكبير، وكان مثقلا أكثر من أي قرار آخر عرفته بالنتائج المأسوية. أما أنه تخلى عن برلين للروس، فقد بدا مبررا تماماً من الناحية العسكرية: إذ كان هؤلاء يقاتلون في هذا الوقت على نهر الأودر، على بعد 65 كيلومترا فقط من العاصمة الألمانية، بينما كانت الجيوش الأميركية تعمل لإيقاع مجموعة جيش مودل الألمانية في ستالينغراد جديدة على نهر الرور، على مسافة 450 كيلومترا من برلين. هذه الذريعة الكمية تتجاهل العامل النفسي الأكثر أهمية، فبينما كان الألمان يقاتلون الروس بشراسة وعناد، ويستخدمون كتلة قواتهم التي لا تزال صالحة للقتال، كانت المقاومة ضد الحلفاء الغربيين قليلة. لذا، بلغت وحدات أميركية متقدمة يوم 13 نيسان/ أبريل نهر الإلبه بين باربي وفيتنبرج، ولم يكن من الصعب، بتوفر دعم ومعاونة القيادة، قطع يومي المسير اللذين كانا يفصلانها عن العاصمة. إلى هذا، لم يبدأ الهجوم السوفياتي على برلين إلا يوم 16 نيسان/ أبريل، قبل تسعة أيام من التقاء قوات أميركية وروسية قرب تارغاو على الإلبه. بذلك، صار الاتحاد السوفياتي المنتصر الحقيقي في الحرب العالمية الثانية.

أسهمت تحليلات الاستخبارات وتقاريرها بقسط وافر، إن لم يكن حاسما، في القرارات الخاطئة والمأسوية، التي اتخذها الأميركيون سنة 1945. ويثير الاهتمام في هذا السياق التقويم الذي أجراه الجيش الأميركي السابع، الذي كان يقاتل على ميمنة القوات، يوم 25 آذار/مارس للوضع (وكان قائده العميد باتش)، وقال إن «من غير المؤكد أن الألمان شكلوا في «حصن الألب» وحدات نخبة تتكون بصورة رئيسة من الـ إس إس وقوات جبلية، تضم مئتين إلى ثلاثمئة ألف رجل». وانه «تم نقل مواد تسليحية إلى الحصن، وأن قطارات طويلة تذهب إليه كل أسبوع منذ الأول من شباط/فبراير سنة 1945، تحمل أنواعا جديدة من المدافع، وأنه تم بناء مصنع طائرات تحت أرضي لإنتاج مقاتلات مسر شميدت». تكدست تقارير مشابهة في مكاتب استخبارات الجيوش الأخرى أيضاً، وقال تقويم حول وضع العدو أجرته القيادة العليا الحليفة في أوروبا يوم 11 آذار/مارس ما يلي[1]: «علينا أن نأخذ نظريا في اعتبارنا أن من يمسكون حاليا بالسلطة في ألمانيا سينسحبون إلى هذا «الحصن»، الذي تخصه معطياته الطبيعية بمزايا كبيرة، وتحميه أشد الأسلحة السرية فاعلية، ليكون نقطة انطلاق انبعاثهم الجديد. . . . يبدو أن الطموح الرئيس للسياسة الدفاعية الألمانية منصب على تأمين منطقة الألب. . .».

لا عجب أن يتخذ رئيس أركان القوات المسلحة الأميركية الجنرال مارشال قراراته النهائية بناء على تقارير كهذه، وأن يستخلص المحصلة الإجمالية لتحليلات وأخبار عملاء الاستخبارات، كما وصلته من سويسرا خاصة، ويعطي أيزنهاور الضوء الأخضر في شكل سؤال[2]: «ما رأيك في

(1) المرجع ذاته، ص 159.
(2) المرجع ذاته، ص 159.

شن هجوم سريع على خطوط نورنبرج ـ لينز أو كارلسروه ـ ميونيخ؟. أفكر بعملية سريعة، تمنع بناء مناطق مقاومة منظمة. وهناك من يرى أن الأرض الجبلية في الجنوب يجب أن تكون هدف عملية كهذه».

احتل الأميركيون نورنبرج يوم 20 نيسان/أبريل، بينما كانوا في حالة تقدم سريع نحو الشرق والجنوب. كانت برلين قد ركنت جانبا في هذه الأثناء، بمعنى الكلمة الحرفي. وكانوا يؤمنون في مقر أيزنهاور الرئيس وفي أركانات الجيش أنهم سيخوضون معارك شديدة حول الألب البافاري والنمسوي. ويعتقدون أنه حان وقت إعلام الرأي العام بالوضع الجديد، لذلك عقد في اليوم المذكور مؤتمر صحفي في باريس، أداره رئيس أركان القائد الأعلى، الجنرال بيدل سميث شخصيا.

كان مطلوبا تنوير الرأي العام حول سبب إحجام الجيش عن التقدم نحو برلين، أي حول معزل الألب، بغض النظر عن صحة الأخبار حوله أو خطئها. وقد رجا سميث سامعيه أن يحافظوا على أقصى قدر من السرية، عندما قال[1]: «نحن لا نعرف الكثير حول هذا المعزل. وإن كنا نعرف أن الألمان نقلوا ما استطاعوا نقله من قوات وأسلحة إلى منطقة جنوب ألمانيا والألب البافاري. إننا لا نعرف بعد ما قد نواجهه هناك، وإن كنا بدأنا نعتقد مع ذلك أنه سيكون أكثر بكثير مما كنا نتوقع بالأصل... عندما سنصل إلى هناك في الجنوب، سنجد على الأغلب مرافق تحت أرضية أكثر بكثير مما كنا نعتقد». هذه الإشارة مهمة جدا، لكونها تستند على تضليل متعمد مارسته أجهزة الاستخبارات الحليفة. لإيضاح هذا الجانب، لا بد من عودة أخرى إلى الماضي.

(1) استشهاد بحسب مونج، ص 36.

لم تبق الأخبار الأولى حول احتمال وجود معزل نازي، التي وصلت من سويسرا إلى الحلفاء في أيلول/سبتمبر من سنة 1944، سرا اقتصر عليهم، فقد عرفه أيضاً الموقع الخارجي للاستخبارات الألمانية في بريجنز من أعمال فورارلبرج، وأوصل المعلومة إلى هوفر، قائد محافظة التيرول، الذي أدرك للتو أهميته بالنسبة إلى الجانب الألماني، رغم أنه كانت لديه شكوك جدية حول إمكانية مواصلة المقاومة عسكريا بعد خسارة بقية منطقة الرايش، على حد ما قاله هو نفسه للمؤلف فيما بعد[1]. لكن هوفر كان يدرك، بالمقابل، الفرص السياسية التي يتيحها رهان محتمل على المفاوضات في نهاية الحرب. وقد فكر بالطريقة ذاتها رئيس مكتب أمن الرايش الرئيس كالتنبرونر، بعد أن أخذ علما بالمذكرة الأميركية من سويسرا. لم يكن كالتنبرونر وهوفر من أنصار القتال حتى الطلقة الأخيرة، وكانا قد توقفا منذ وقت طويل عن التعلق بأوهام «النصر النهائي». لهذا السبب بالذات قاما بكل شيء من أجل بناء «تحصينات»، حيث استطاعا إلى ذلك سبيلا، لتضليل استخبارات الحلفاء بتدابيرهما الوهمية، وهو ما نجحا في تحقيقه بكل وضوح، ذلك أنهما حرصا على ظهور الجيولوجيين وخبراء النسف بالديناميت ووحدات الهندسة بطريقة تلفت الأنظار، في كل مكان من التيرول ومنطقة سالزبورج، فترتب على خداعهما ما شاع من تقارير حول مخازن مؤن تحت أرضية، وورش ومصانع... الخ.

كان الأميركيون يعتقدون آنذاك أن هتلر سينسحب إلى هذا المعزل، كي يقاتل إلى آخر رمق، أسوة بما يطالب قواته به. يؤكد هذا قول فالتر بيدل سميث في مؤتمره الصحافي الباريسي: «ما دام هتلر أو أي واحد من معاونيه يستطيع أن يقف على صخرة قرب سالزبورج، ليعلنوا أنهم هم الألمان

(1) في الأسر في «بيت آلاسكا»، الذي كتب هوفر فيه تقريراً حول «حصن الألب» بطلب من الأميركيين.

الأحرار. ومادامت الوحدات الألمانية، التي بقيت متماسكة بطريقة ما، تتلقى بواسطة الإذاعة أوامره التي تحثها على مواصلة القتال، وتعدها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، فإن هذه القوات ستحاول الدفاع عن نفسها. إذا كنا نريد إيصال هذه الحرب إلى نهايتها، وبسرعة، يجب ان يكون هدفنا التالي جعل هذا المعزل غير مؤذ بالنسبة لنا. وقد صدرت الأوامر التي تتفق مع ذلك». لا مراء في أن أقوال بيدل سميث كانت نتاج تفكير دقيق. وان قرار الهجوم على «حصن الألب» عوض التقدم نحو برلين اتخذ جزئيا تحت ضغط الرأي العام في الولايات المتحدة، الذي كانت النيويورك تايمز أول من عبأه. لكن القرار كان أيضاً وليد تحليل إجمالي قامت بها استخبارات القيادة العليا المتخصصة بالعدو، قيل فيه[1]: «تبدو السمة الغالبة على تكتيك الدفاع الألماني وكأنها ترمي إلى تأمين منطقة الألب... التي تجعلها طبيعتها الارضية عصية على الاحتلال... وتشير الدلائل جميعها إلى أن أعدادا كبيرة من وحدات الـ إس إس ووحدات أخرى مختارة سحبت وفق خطة محكمة وبأعداد كبيرة إلى النمسا... وأن أكثر مكاتب وشخصيات النظام النازي أهمية قد استقروا في المعزل». ثم يقول التحليل، بطريقة عاطفية تقريبا: «بدفاع الطبيعة والأسلحة السرية الأكثر فاعلية، التي تم اختراعها عنه، ستنجو القوى التي قادت ألمانيا إلى الآن، وستعد لبعثها مجدداً منه، حيث يتم إنتاج الأسلحة والذخائر في مصانع مضادة للقنابل، وتكدس المواد الغذائية والتجهيزات في مغائر تحت أرضية عملاقة، ويتلقى جحفل تم اختياره من الشبان بالدرجة الأولى تدريبا خاصا على الحرب الصغيرة، بحيث يمكن أن يتشكل بهذه الطريقة جيش سري كامل، سيتم استخدامه وقيادته لهدف أوحد هو: تحرير ألمانيا من قوات الاحتلال». خدم مؤتمر باريس الصحفي في

(1) شستر فيلموت: الصراع على أوروبا، ص 754.

العشرين من نيسان/أبريل 1945 أغراضا دعائية أيضاً. يبدو أن الجنرال سترونج لم يؤيد هذه الرؤية، مثلما يلمح في مذكراته، لأنها حملت الكثير من صفات رومانسية الغرب المتوحش، ولم تأخذ في اعتبارها تعب الجيش الألماني، بما في ذلك وحدات الـ إس إس، من الحرب، الذي ما لبث أن ظهر خلال معارك شباط/فبراير في هنجاريا. والحق، أنه لم يكن هناك، باستثناء قبضة من كبار النازيين المتورطين والانتحاريين اليائسين، ترى في الدفاع الألبي فرصة أخيرة لإطالة حياتها والاحتفاظ بالسلطة لبعض الوقت، عسى أن تخرج سالمة منها.

مهما يكن من أمر، لم تنقل الاستخبارات الحليفة، وعلى رأسها استخبارات أميركا، الواقع على حقيقته، مع أنه هذه مهمتها الرئيسة. وتشير سائر الدلائل إلى أنها انساقت بالأحرى وراء الأحكام المسبقة. وزاد الطين بلة بالنسبة لها أنها لم تمتلك في هذه المرحلة النهائية من الحرب جاسوسا أو متعاونا في قيادة القوات الألمانية المسلحة أو في محيط هتلر، وإلا لكان الحلفاء عرفوا الحقائق بصورة أفضل. إلى هذا، لم تعلم القيادة الحليفة في الوقت المناسب بواقعة بقاء هتلر في برلين وعدم فراره إلى بيرشتسجادن، وإلا لكان تخليها عن برلين غير مفهوم على الإطلاق. هكذا كان هجوم 500 قاذفة من طراز ليبراتور قبل ظهر يوم 25 نيسان/أبريل على أوبرسالزبرج ومحيطها مجرد ضربة في الماء: صحيح أن محطة الجبل إصيبت إصابة مباشرة ودمرت، وأن قصر جورينج وبيت بورمان الريفي تحولا إلى ركام واحترقا تماما، وأن أماكن إيواء الـ إس.إس والبلاترهوف ونزل فاخنفيلد، الذي كتب هتلر فيه جزءا من كتاب كفاحي، قد احترقت، لكن هذا كله لم يكن له أي معنى غير الاستعراض.

نهاية حرب الفرص المهملة

سمح مارشال وأيزنهاور بخداعهما وخدعا نفسيهما بنفسيهما. بذلك، قيض لمضاربة تأملية ظهرت في سويسرا أن تصنع تاريخ العالم، وإبعاد قوة الولايات المتحدة العالمية عن برلين، التي كان يجب أن تبقى هدفها الرئيس، حسب جميع الاعتبارات السياسية، مع انه تعاظمت في النصف الأول من نيسان/أبريل حظوظ الأميركيين في الوصول قبل الروس إلى العاصمة الألمانية، وتنامت بمرور كل يوم من ايام تقدمهم العاصف، الذي قام به على الجبهة بين هانوفر وكوبورج سبع وعشرون فرقة في كامل قوتها القتالية، انخرطت في سباق حقيقي نحو الشرق، وأبلغت يوميا أنها لا تواجه أي مقاومة باستثناء بعض موانع الدبابات، إلى أن وصلت مساء الحادي عشر من نيسان/أبريل وحدة استطلاع قوية تابعة للجيش التاسع إلى مقربة من ماجدبورج على نهر الإلبة. كتب برادلي في مذكراته يقول[1]: «أرجح أنه كان بوسعنا آنذاك بلوغ برلين، لو كنا عازمين على تحمل الخسائر، التي سنتكبدها فيها. في ذلك التاريخ، لم يكن جوكوف قد عبر نهر الأودر بعد، وكانت برلين تقع في الوسط تقريبا بين قواتنا وقواته». بعد يوم من ذلك، في الثاني عشر من نيسان/أبريل، توفي روزفلت. ثم التقت القوات الأميركية والسوفياتية في الخامس والعشرين من الشهر قرب تورغاو على نهر الإلبة، لكن الفرقة الأميركية 83 كانت قد أنشأت قبل إثني عشر يوما من ذلك رأس جسر عميق شرقي النهر، ووضعت، عند الجسر الحربي، الذي أقامته وحدات الهندسة الأميركية في وقت قياسي، لوحة على شرف الرئيس الأميركي الجديد، كتب عليها «جسر ترومان، بوابة برلين، تحية صغيرة من فرقة المشاة الثالثة والثمانين».

(1) مرجع سابق، ص 517.

فيما بعد، جرت محادثة مأسوية بين برادلي وأيزنهاور، الذي سأله: «كم سيكلفنا احتلال برلين من خسائر؟»، فرد قائلاً: «أعتقد أنها ستبلغ قرابة مئة ألف قتيل وجريح». لم يكن هذا التقدير مبنيا على معلومات موثوقة، بل كان اعتباطيا. لكنه كمن وراء قرار أيزنهاور الأخير، وجعل فتح بوابة برلين انطلاقا رأس جسر باربي ضربا من العبث. أعلم أيزنهاور مساء الرابع عشر من نيسان/أبريل واشنطن بخططه، من مقره في ريمز، وهي[1]: 1: «التمسك بجبهة قوية في القطاع الأوسط على نهر الإلبة، وهذا معناه الوقوف عملياً عند النهر. 2: بدء عمليات في اتجاه لوبك والدنمارك. و3: القيام بهجوم قوي نحو الجنوب، للقاء القوات السوفياتية في وادي الدون، وتحطيم «حصن الألب». بما أن التقدم نحو برلين يتوقف على نتائج هذه العمليات الثلاث، فإنني لم أضعه في اعتباري»، هذا ما قاله أيزنهاور في ختام برقيته.

هكذا تركت برلين نهائيا للروس. وتبين أن عصاب حصن الألب الذي أصاب الأميركيين كان أقوى محددات سلوكهم عند نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد فشلت استخباراتهم فشلا ذريعا في مسألة برلين الحاسمة.

(1) رايان، ص 263.

الفصل الرابع

اضطراب وعي هتلر

عجزت استخبارات الولايات المتحدة الأميركية عن بلوغ الحقيقة في سياق مهم آخر هو وضع هتلر الصحي. وهذا برهان إضافي يؤكد أنه لم يوجد رجل ثقة حليف في مقر الفوهرر الرئيس. كانت واشنطن ورايمز تعتبران هتلر، حتى نيسان/أبريل 1945، «قائداً» مقررا شديد التصميم، مع أنه كان قد اختفى من الوجود منذ وقت طويل. لكن ضباط الاستخبارات الأميركيين كانوا يجهلون هذه الواقعة، مثلما غابت عنهم من قبل واقعة هجوم الأردين، الذي شوش فشله عقل الدكتاتور الألماني إلى درجة أنه رفض ببساطة رؤية الأخطار القاتلة، التي كانت تنقض عليه وعلى الرايش، رغم المعلومات الدقيقة، التي كانت تصله بصورة خاصة من شعبة «الجيوش الأجنبية شرق». ولم يدرك، بالمقابل، ماهية الفرص الأخيرة المتاحة لألمانيا. لقد تحولت إرادته الشيطانية إلى عناد، بينما كان يترك الأشياء تجري على هواها. وحتى محيطه المقرب، الذي خضع منذ وقت طويل لغواياته ورضخ له، لم يحل بينه وبين الوضع الذي آل إليه.

لم توجد مهزلة التضييع والاضطراب قرب نهاية الحرب في مقر الحلفاء الغربيين وحدهم، بل وجدت في مقر الفوهرر الألماني أيضاً، حيث كانت نتائجها أشد سوءا من مثيلتها هناك. ترى، أليست مهزلة فريدة من نوعها في التاريخ أن يعلم قائد محافظة التيرول هوفر بأسطورة «حصن الألب» من تقرير

سري أميركي صدر عن سويسرا خريف سنة 1944، التقطته الأجهزة الألمانية؟. لقد أدرك للتو الفرصة، فرصة الممكنات السياسية لا العسكرية، التي تقدمها، وعرف أن الرايش سيستسلم عاجلاً أم آجلاً، فمن المحتمل أن يصير هذا المعزل نوعا من الرهن، لا يستطيع أن يستخدم، ولا يجوز أن يستخدم، لإطالة الحرب، لكنه يمكن أن يحول دون استسلام المهزوم للمنتصر، يفعل به ما يريد. أكد فرانس هوفر هذه الفكرة مراراً وتكرارا، عندما التقينا به في الأسر. كان يقول: «تصوروا لو أن يودل جاء إلى رايمز وفي يده رهن «حصن الألب» الذي لم يتم احتلاله بعد. إنه ما كان ليحصل بالتأكيد على تنازلات سياسية، لكنه كان يحتمل أن يحسّن مصير جنود القوات المسلحة». لم يعرف أحد في أركان القوات المسلحة الألمانية حتى آذار/ مارس من سنة 1945 أن عصاب حصن الالب أصاب الأميركيين. ولم يفهم أحد شيئاً من مذكرة محافظ التيرول هوفر، الذي أشار إليه كفرصة أخيرة، وبقي ما اعتبر في حينه «تقدمة إلى الفوهرر» عند مدير الرايش بورمان، الذي كان يجب أن يقدمه إليه، إلا أنه لم يجرؤ على إيصاله، بعد أن انتهى الإعداد لهجوم الأردين وتم الشروع به. ومنعته كوابح من تقديمه اليه بعد فشل الهجوم، رغم أن هوفر كان يذكّره به أسبوعيا. كانت المذكرة تحمل بين سطورها الإقرار بالهزيمة، التي كان عقل هتلر المشوش يرفض تصديق وقوعها. وقد أهملت، لأن بورمان، المنافق والقليل الذكاء لم يفهم ربما الفرصة التي يتيحها «الحصن»، فكان أن جاءت الإشارة الحاسمة من جهة أخرى.

كان الملحق العسكري السابق في الولايات المتحدة الأميركية من سنة 1939 وحتى انفجار الحرب سنة 1941، الجنرال فرايهر فون بوتيشر، هو الذي حرك المسألة[1]. فقد تلقى بعد عودته إلى ألمانيا تكليفا من القيادة العليا

(1) راوخنشتاينر، ص 242.

للقوات المسلحة بكتابة تقارير دورية عن نوايا أميركا، تميزت دوماً عن غيرها بمضمونها الواقعي ومعطياتها الدقيقة، فكانت لهذا السبب محل دراسة مدققة وواسعة[1]. لم يحصل الجنرال على معلوماته من عملاء أو جواسيس تركهم في الولايات المتحدة، بل أخذها من صحافة أميركا والصحافة الغربية، التي عرف كيف يقومها بطريقة رجل الاستخبارات الكلاسيكية، التي أثبت أنهما مثيرة للاهتمام، معطاءة وعلى قدر عظيم من الأهمية.

قدم بوتيشر تقريراً جديداً في آذار/مارس من سنة 1945، ذكر أخبار الصحافة حول عصاب المعزل لدى الأميركيين. أثار التقرير اهتمام العماد يودل، رئيس أركان حرب القوات المسلحة، فأخبر هتلر به. عندئذ، لم يعد بورمان يستطيع الاحتفاظ لفترة أطول بمذكرة هوفر، وأعلم هتلر بها أيضاً. يبدو أن الحجج أقنعت «المعلم»، الذي اهتم فجأة بـ«حصن الألب»، ولكن مع التردد، الذي ميز الفترة الأخيرة من حياته، وأدى إلى بقاء الوضع على حاله حتى التاسع من نيسان/أبريل، عندما دعي هوفر إلى برلين، ليقدم تقريراً إلى هتلر شخصيا، بعد أكثر من نصف سنة من الانتظار. من جانبه، طار كالتنبرنر أيضاً إلى لقاء حواري في برلين.

نظمت محاورتان في ديوان الرايش وملجأ الفوهرر، شارك فيهما كايتل ويودل وهوفر وكالتنبرنر وسواهم من شخصيات الرايش النافذة. وكان من الضروري طبقا لطبيعة هتلر أن يتم التأكيد في هذه المناسبة على القدرات العسكرية، التي يتيحها «الحصن»، ويتم السكوت عن أبعاده السياسية. أخيراً، تم إقناع هتلر بفائدة «حصن الألب»[2]، وصدرت في الخامس عشر من نيسان/أبريل أوامر إعدادية أولى لبناء نظام دفاع دائري. وصدر في

(1) راوخنشتاينر: المرجع ذاته، وكذلك بيرسي إرنست شرام، ص 1801.

(2) راوخنشتاينر، ص 242.

العشرين منه، وهو يوم ميلاد هتلر السادس والخمسين والأخير، «قرار الفوهرر» باستكمال بناء دفاع «حصن الألب». هذه «الفكرة» التي ظهرت في سويسرا خلال أيلول/سبتمبر من سنة 1944، وكانت مجرد فكرة تأملية، كسبت بعد سبعة أشهر المعني الرئيس بها، فكان هذا بالتأكيد إحدى مهازل تاريخ العالم.

جاء «قرار الفوهرر» متأخراً جداً: فقد احتل الأميركيون نورنبرج في العشرين من نيسان/أبريل، وقاموا بتقدم مريح نحو الجنوب والجنوب الشرقي. صحيح أن الفترة حتى نهاية نيسان/أبريل كانت تكفي لإقامة بعض الموانع المضادة للدبابات شمال رويته في التيرول، وعلى الفيرنباس في الشارنيتسركلاوزه، وجبل تسيرلر ومنطقة كوفشتاين وقرب أونكن، لكنه لا معنى للحديث عن «حصن» متماسك، فلا التحصينات القليلة ولا المدافعين الذين فقدوا إرادة القتال، كان بوسعهما إيقاف طلائع الدبابات الأميركية فترة أطول، بما تمتلكه من قوة نارية وهجومية: تغلغلت طلائع الجيش السابع الأميركي، وخاصة منها الفرقة 103، في الأول من أيار/مايو قرب شارنيتس في التيرول، دون أن تواجه بمقاومة مؤثرة. وفي الرابع من الشهر ذاته مرت الدبابات الأولى التابعة للجيش الخامس عشر الأميركي عبر سالزبورج، وتقدمت في اليوم التالي نحو بيرشتسجادن، حيث لم تطلق غير رصاصات قليلة، أثناء احتلال «آخر معبد نازي». واتحدت ليلة الثالث إلى الرابع من أيار/مايو طلائع مجموعتي الجيشين الحليفين الخامس عشر والسادس قرب شتيرسنج، في قلب «حصن الألب»، الذي انكشف أمره كشبح، وتأكد أن المعلومات حول بنائه وقوته القتالية كانت خاطئة ومبالغا بها إلى أبعد حد.

حصيلة «حصن الألب»

من المؤكد اليوم أنه وجد في نهاية الحرب العالمية الثانية شبح قيض له

أن يصنع تاريخا عالميا، ويشارك في صياغة وأوروبا المستقبل وتطورها، ويشغل الأميركيين أكثر من الألمان، الذين منعهم جوبلز (وزير دعاية النازية ـ المعرّب) من الحديث عنه، حين عرف ما كتبته الصحافة الأجنبية عنه. كان الشبح فكرة مضاربة ظهرت في بلد محايد، يشبه فكرة المعزل القومي الذي يمثله، سرعان ما تحول إلى سبب أثار عصابا حقيقيا في الصحافة الغربية، ثم في مقرات القيادة العسكرية الأميركية، التي تعرضت لضغوط رأيها العام. تحولت الفكرة المضاربة والاحتمالية في نهاية آذار/مارس 1945 إلى عامل قرر استراتيجية الحلفاء الغربيين النهائية، وجعل الأميركيين يتوقفون على نهر الإلبة، وفي رأس جسر باربي، قبل أن يرسلوا قوتهم الرئيسة إلى الجنوب والجنوب الغربي، ليحكموا المقاومة المتوهمة للنازيين على حوافي الألب وفي قلبه، عوضاً من أن يتقدموا إلى برلين، التي كانت قريبة وفي متناول أيديهم. هنا، ارتكبت الاستخبارات الحليفة أكبر غلطة في الحرب العالمية الثانية، لأنها لم تول العوامل النفسية الاهتمام الضروري، وبالغت في تقدير هتلر، الذي كانت شخصيته قد انهارت في ذلك الوقت، وأفرطا في تجاهل تعب الجنود الألمان من الحرب، الذين كانوا لا يستطيعون ولا يريدون الاستمرار فيها، ما لم يقاتلوا من أجل حياتهم، مثلما فعلوا في مواجهة السوفيات. انفرد الانجليز، بغريزتهم السياسية السليمة بإدراك الأهمية السياسية لعاصمة ألمانيا بالنسبة لزمن ما بعد الحرب. إلا أنهم لم يتمكنوا من فرض نظرتهم في مواجهة البراعماتية العسكرية الصرف لحلفائهم، الذين امتلكوا القدرات المادية الحاسمة.

هذه حصيلة رؤية نقدية لعمل استخبارات الولايات المتحدة في أوروبا في نهاية الحرب العالمية الثانية، الذي يجب على المستويات العليا الأميركية التفكير في أهميته، واستخلاص العبر منه. لا شك في أن الاستخبارات الألمانية المتخصصة بالعدو أنجزت أعمالا عظيمة، لكنها لم تصل، مع ذلك،

إلى «القاعد فوق»، وكانت المؤسسة العسكرية التي وعت قرابتها الخاصة مع المجالين النفسي والسياسي، من دون أن تنجح في تحقيق اختراق في أي منهما. ثمة أمر غريب آخر من الضروري الإشارة إليه، هو أن من درس الصحافة الدولية وخاصة منها الأميركية في ألمانيا وقومها بعناية لم يكن «أستاذا في الجاسوسية» بل ملحقا عسكريا ضليعا، عرف النفسية الأميركية وقدم معلومات إلى هيئة أركان القوات المسلحة عن «عصاب المعزل» لدى الأميركيين، ورأى أنه كان الفرصة الأخيرة في آذار/ مارس من سنة 1945، ليس لأن الحرب كان يمكن إطالتها بواسطته، بل لأنه وضع شيئاً في يد الألمان بوسعهم المقايضة عليه، عند استسلامهم. لكن ورقة كهذه كانت تجعل من الحتمي اتخاذ مصفوفة تدابير كاملة، كالتخلي عن الدفاع الغبي عن خط الإلبة ضد الأميركيين، وتركيز جميع القوات، القادرة على القتال، في منطقة الألب. عندئذ، كانت ألمانيا ستمتلك شيئاً تستطيع المقايضة عليه.

بيد أننا نصطدم هنا بهتلر، الذي كان عقله المشوش عاجزا عن اتخاذ قرارات سريعة ومتكاملة، وأرجأ الحسم إلى منتصف نيسان/ أبريل، فتأخر الوقت وضاعت آخر الفرص[98].

من المعلوم أن العماد يودل قال بعد توقيع صك الاستسلام في رايمز الساعة الثانية والدقيقة الحادية والأربعين من السابع من أيار/ مايو سنة 1945[1]: «أيها السيد الجنرال، بهذا التوقيع يكون الشعب الألماني والقوات المسلحة الألمانية قد وضعا ازدهارهما وهلاكهما في يد المنتصر. وقد عملا وتحملا في هذه الحرب، التي استمرت لأكثر من خمس سنوات، أكثر مما عمل وتحمل أي شعب آخر في هذا العالم. وليس لدي ما أعبر عنه في هذه الساعة غير الأمل بأن يعاملهما المنتصر بمروءة وكرم».

(1) استشهاد مأخوذ من تولاند، مرجع سابق، ص 551.

الفصل الخامس

حلقات بحث التاريخ المعاصر

ماذا جرى للاستخبارات السرية ولتاريخها؟. لم تنقطع تماماً معلومات المؤلف بالاستسلام غير المشروط في أيار/مايو من سنة 1945، بل أضيفت إليها بالأحرى معلومات جديدة. صحيح أن المخبر الحربي كان يستطيع اكتساب الكثير من الفهم وجمع الكثير من الخبرة لدى الدوائر القيادية الأعلى، التي خدم فيها، إلا أنه كان لا يزال هناك ثغرات في فهمه وخبرته، وافتقر إلى نظرة عامة شاملة، وكان عليه أن يقوم بأبحاث لاحقة تتسم بالمواظبة، بعد فاصل زمني كبير بينه وبين ما عاشه من أحداث. أما الخطوة الأولى والأكثر أهمية في الوقت نفسه على هذا الطريق، فكانت خطوة عبر معسكرات الاعتقال. وكانت قد جمعتني «جاذبية المرجعية» بشخصيات تستطيع تقديم معلومات مهمة، من أول مصدر، تتعلق ليس فقط بهتلر وسلوكه، بل كذلك بعلاقته بالحقيقة وجهاز الاستخبارات، وبالظروف المرافقة لمرضه وبنتائجها. من جانبي، كنت قادرا أنا نفسي على إعطاء بعض المعلومات ولعب دور توضيحي، لأن شخصيات قيادية كثيرة في الرايش الثالث لم تر «قائدها» ورئيس وزرائها منذ سنة 1941، ناهيك عن التحدث معه، وهو الذي كان منطويا على نفسه ومنعزلا في مقراته.

بدأت حلقات بحث التاريخ المعاصر بلقاءات لا تنسى، عقدت في

شهري أيار/ مايو وحزيران/ يونيو من سنة 1945. هكذا التقيت في وادي جاشتاينر طبيب أسنان هتلر البروفسور هوجو بلاشكه، الذي تبين لنا في الأسر أنه طبيب مفيد لأسناننا المريضة، وخلص بعضنا من آلامه بأدوات صنعها بنفسه. وقد روى أنه كانت لـ«المعلم» أفكاره حول طب الأسنان، وأنه طور نظرية حول العناية بالأسنان من خلال التغذية. وقال إن ذلك كان واحدة من علامات جنونة. جرت المقابلة الثانية، التي تمت صيف سنة 1945، واستمرت فترة قصيرة، مع رئيس الدولة السلوفاكية السابق جوزيف تيزو، رجل الدين الكاثوليكي، الذي حكى بدوره كثيراً عن هتلر، في خليط غريب يضم الإعجاب إلى الخوف الشديد. التقيت تيزو وغيره من الشخصيات العالمية المهمة في علّية ثكنة فرايزنجر للمدفعية، وهي معسكر خاص نقلت إليه بعد المرور بمعسكر الجوع إيبلينج ومعسكر الأركان في جارميش .وكان تيزو قد اعتقد ذات مرة، أن هتلر النمسوي سيبني وسط أوروبا، طبقا لرؤية فريدرش ناومان، أي كاتحاد فيدرالي يضم الشعوب، سيكون لأعضائه الحرية في تقرير نمط تطورهم السياسي الداخلي. وزعم أنه حقق شيئاً من هذا بالنسبة إلى سلوفاكيا. ولأنه عرف أن الأميركيين سيسلمونه، فقد قرر الاستسلام لقدره، وإن كان أفول الغرب المسيحي، الذي يراه ماثلا أمام عينيه، هو الذي كان يقلقه. لقد أحجم هذا الكاهن الشريف دوماً عن التفوه بما يسيء للألمان، بعكس حلفاء سابقين كانوا لا يخفون كرههم لنا.

لم أبق فترة طويلة في فرايزينج، لكنني أدين لإقامتي هناك بمعرفة أورون هاله، استاذ التاريخ الأحدث في جامعة الدولة بفرجينيا، الأميركي من أصل اسكتلندي، النحيل، طيب السريرة وواسع المعرفة، الذي قبل بطريقة ودية المراسل الحربي اليائس، لأنه كان قد قرأ تقاريره جميعها. لقد كان أمرا منعشاً أن أجري أحاديث صريحة معه، لمعرفة أسباب الهزيمة والكارثة الألمانية. وكان قد نشر مطلع سنة 1948 دراسة عن أدولف هتلر كقائد

عسكري في مجلة فرجينيا كلوارترلي ريفيو، ظهرت ترجمة ألمانية لها[1]، تنتسب إلى السياق الكبير لتحليلنا النقدي، وتنطلق من كلاوزيفيتز - وهو أمر نادر الحدوث بالنسبة إلى أميركي -، لتصل في مقطعيها الأولين إلى استخلاصات نهائية. يكتب هاله[2]:

«أكد كلاوزيفيتز، أذكى استراتيجي وفيلسوف حربي حديث، أن الاخبار، التي يمكن للمرء الحصول عليها في الحرب، يتناقض قسم كبير منها بعضه مع بعض، وأن جزءا كبيراً منها يكون خاطئا، وجزؤها الأكبر مشكوكا فيه إلى حد ما». هذه الأنواع الثلاثة جميعها يمكن ربطها بمضاربات ومزاعم دارت في أوساط الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية حول ما إذا كانت قوات ألمانيا المسلحة توجه وفق الأسس الاستراتيجية للأركان العامة الألمانية أو من خلال «حدس هتلر المعصوم». بل إنه تم التأكيد في بعض الدوائر على أن الأفكار الاستراتيجية، التي شكلت أساس الحملات الألمانية، هي ما أوحى به إلى هتلر والأركان العامة الألمانية خبير الاستراتيجيات السياسية هاوسهوفر. ومع أن الدوائر العسكرية المتخصصة لم تر خطورة في هذه الدراسة، فإن البروفسور ومعهد السياسات الاستراتيجية، الذي عمل فيه، كانا على قائمة «الأهداف»، التي فحصها جهاز الاستخبارات وفتشها بدقة بعد الحرب.

أدى استسلام ألمانيا إلى وقوع الشخصيات العسكرية الأعلى ومعظم الوثائق العسكرية الرسمية بين أيدي الأميركيين والإنجليز. وقد أكد المصدران كلاهما أن هتلر هو الذي اتخذ القرارات الأكثر أهمية خلال طور الحرب

(1) أورون هاله: هتلر كقائد عسكري. في قسم الخارج والموضوعات، التابع لخدمة تقارير الصحف في جنوب غرب ألمانيا. شتوتجارت، 1948.

(2) هاله، المرجع ذاته.

الأول، وأنه خلال طورها الثاني بين 1942 وحتى 1945 لم يكتف باتخاذ قراراتها الاستراتيجية وحدها، بل مارس كذلك الإمرة الشخصية المباشرة على الجيوش المقاتلة في مختلف قطاعات الحرب: وأن سائر النجاحات الاستراتيجية لسنوات الحرب الأولى، والجهود والأخطاء الاستراتيجية للفترة التالية لها، ترجع إليه وحده». أخيرا، يصل هاله في نهاية دراسته إلى النتيجة الآتية: «في ظل وقت عمل يبلغ يوميا (قرابة) 24 ساعة، والعيش على طعام نباتي، والتهييج الذي تسببه الحقن اليومية التي كان يزرقه بها طبيبه الخاص دكتور مورل، تحول الرجل تدريجيا إلى حطام روحي وجسدي، فقد في النهاية القدرة على اتخاذ القرارات. وقد لاحظ شبير، وزير الإنتاج الحربي، الذي كان على صلة وثيقة معه حتى نهاية الحرب، أنه أظهر «عدم ثقة في النفس وحيرة معذبة عند اتخاذ قرارات» حول القضايا، التي تصرف حيالها بالأمس بثقة ذاتية لا تراعي أي اعتبار». هذا ما قاله هاله، الذي كان قد استمع إلى رأي جميع الشخصيات الألمانية النافذة حول هذا الموضوع. أما أنا، فأرى أن انهيار هتلر النهائي كان من نتائج فشل هجوم الأردين ؛ فحل في الأشهر الأخيرة محل الجرأة على اتخاذ القرار تردد عززه عناد لا يقبل الإصلاح.

أدين للبرفيسور هاله بإرسالي إلى معسكر خاص هو «بيت ألاسكا» قرب أوبر روسل في تاونوس. وكنت قد وضعت قبل إرسالي إليه في حبس انفرادي شديد وتعرضت لتحقيق دقيق استمر 28 يوماً خرجت منه من دون أن توجه إلي تهمة ارتكاب جرائم حرب. ثم نقلت إلى «بيت ألاسكا». لم تكن الحالة سيئة في هذه الـ«ألاسكا»، التي سميت كذلك لأن من كانوا يوضعون فيها كانوا كمن يوضع في ثلاجة، ولأنه كان لدى القيادة الأميركية العليا في أوروبا اهتمام خاص بهم، لأسباب مختلفة. كان «نصاب» البيت دائم التغير، عدا «فصيلة» كبيرة بقيت فيه، فرضت أسباب تتعلق بحجم المكان أن لا

يتجاوز عددها خمسين معتقلا، لجميعهم على وجه التقريب أسماء معروفة، وإن كان بعضهم يخفيها في ثياب مهترئة أو بذات عسكرية جعلتهم يبدون في نظر من يراهم كمتشردين. كان البيت مصحا لمعلمات فرانكفورت، كثير الزوايا فسيح الغرف، بقاعة طعام ملحقة به تستخدم أيضاً كقاعة محاضرات. وكان أمامه حديقة، ووراءه بستان فاكهة وأرض مغطاة بالعشب، كنا نستطيع التنزه فيها قدر ما نريد. وكان هناك مكتبة جيدة في متناول أيدينا.

تكون «النصاب» من فئات كثيرة، شكلت مصدر معلومات مهمة لا ينضب، خص «الرايش الثالث» بها «رفاقه من الشعب»، بمن في ذلك وزراؤه ومارشالاته. كانت قيادة الجيش ممثلة في البيت ـ بين آخرين ـ من خلال المارشال فرايهر فون فايكس والعماد ليندمان، والقيادة العليا للجيش ممثلة بالجنرال هويزنجر والعقيد بونين، وقد سبق لهم جميعهم أن تعرضوا لهذا القدر أو ذاك من نقمة الرايش الثالث. كما تقاسمت لفترة طويلة الغرفة ذاتها مع العميد جيرد فون شفيرين، آخر قائد للفرقة 101 المدرعة، التي قاتلت في الغرب[99]. وتمثلت «آخر» قيادة للرايش في الأمير فون شفيرين ـ كروسيج، وزير خارجية الأميرال دونيتز. إلى هذا، كان هناك رئيس المترجمين باول شميدت، الذي جعل المؤتمرات الدولية، التي عقدت زمن هتلر، تضج بالحياة بفضل تقاريره. وكان هناك أيضاً مرافق هتلر السابق، المقدم خارج الخدمة فيدمان، وأخيراً القنصل العام في سان فرانسيسكو، الذي كان مصدراً أول لمعلومات ثرية.

إضافة إلى هؤلاء، كان هناك الأطباء الذين عالجوا هتلر، أو اهتموا بصورة مباشرة أو غير مباشرة بصحته: طبيب الأذن والأنف والحنجرة دكتور جيزينج، وطبيب رئاسة أركان جبهة الغرب دكتور هانس ـ كارل فون هاسلباخ، اللذان خضنا نقاشات كثيرة معهما، والبرفيسور بلاشكه، طبيب

أسناننا الحالي العالي التأهيل، الذي انصب عمله في السابق على فك هتلر. أما هانه رايتش، السيدة الوحيدة في دائرتنا، أو «الدجاجة في السلة»، كما كان يلقبها بمرح المارشال فون فايكس، فقد حكت لي قصصا مذهلة عن أيام مستشارية الرايش الأخيرة، السابقة لانتحار هتلر: وكانت قد اصطحبت آخر قائد لسلاح الجو الألماني بعد عزل جورينج يوم 13 نيسان/ أبريل 1945، المارشال ريتر فون شرايم، بالطائرة إلى برلين، وأخرجته منها في ظروف مليئة بالمخاطرات والمغامرات أصيب خلالها بجراح، قبل أن يضع حدا لحياته بعد الاستسلام.

بعد الإفراج عني في منتصف 1946، مرت سنوات كثيرة، قبل أن تكتمل صورة هتلر لدي وتغدو شفافة، بسبب استحالة تطبيق معايير تقليدية عليه، ولأن مساره وإنجازاته وشناعاته تتخطى جميع المعايير، الصالحة حتى الآن. لذلك، من غير الممكن بعد إصدار حكم نهائي عليه، أو رسم صورة نهائية له في هذا الكتاب، إلا من خلال أحداث جزئية، تشبه قطع الموزاييك الصغيرة، وإن كان ثمة أمر واحد مؤكد، هو أن عبقريته «السوداء»، التي لا شك فيها، اندثرت بسبب افتقاره إلى معايير، وعلاقته بفن الممكن، وهو نتاج علاقة موروثة مع الحقيقة، التي لم يحملها هو يوما على محمل الجد، ما تؤكد سيرة حياته كلها. ترى، ألا يفسر هذا إصراره الدائم على رفض معلومات جهاز الاستخبارات الألماني المتخصص بالعدو، التي كانت نتاج عمل علمي ومطابقة للحقيقة !. ورفضه الاعتراف بغير العالم، الذي صنعه خياله ووافق تصوراته، وفر إليه فرارا نهائيا في أواخر أيامه !. أما رجل الحرب هتلر، فلا مفر من قياسه بمسطرة تلك المتطلبات، التي تضعها فلسفة الحرب الكلاسيكية، بدلاً من قياسه بمواهبه العسكرية، الكبيرة بهذا القدر او ذاك. وعلى كل حال، من الضروري أن نقول هنا بوضوح: إن قدرات قائد قوات ألمانيا المسلحة الأعلى لم تكن في مستوى يمكنه من مواجهة مهام

الحرب على جبهتين، التي بدأت سنة 1941، وسرعان ما تخطت قدراته الفكرية والعملية. وقد حددت حوارات بيت ألاسكا الكثيرة سبب هذه المعلومات، التي، بقدر ما كان المرء يتعمق فيها، بقدر ما كانت بعض الأمور تبدو له غير مؤكدة، باستثناء أمر واحد هو أن رجلا واحدا تملكته غريزة مستعرة إلى العدوان أطلق الحرب العالمية الثانية من عقالها، وأنه كانت لديه أهداف محددة يريد تحقيقها، مثلما كان لديه تصور استراتيجي حولها. لكن هذا الرجل هو نفسه من نسف ما كان قابلا للتحقيق، فدمر نفسه وقوات ألمانيا المسلحة الممتازة، أداة نهمه الذي لا نهاية له إلى السلطة، ودمر الرايش الألماني.

احتجزت من خريف سنة 1945 إلى حزيران/يونيو من سنة 1946 في «بيت ألاسكا». تلك كانت «فترة نقاهة» بالنسبة إلي كمراسل حربي، حظي خلالها بمقابلات غنية وكثيرة، منها على سبيل المثال تلك التي أجراها مع وزير الدولة الدكتور أوتو مايسنر، رئيس ديوان الرئاسة في حكومات إيبرت، ثم هندنبورج وهتلر، وكذلك مع المستشار الصناعي روشلنج، الذي أعلمه شتاء سنة 1945 بوجود خطط لبناء قطار اسطواني إنزلاقي، بدا له آنذاك وهمياً تماماً، وأخيراً مع فريتس توسن، الذي كان يحب التنزه معه، ـ ولم يكن يرتدي حتى في الشتاء غير قبعة من قش وحذاء أصفر مدبب الرأس ـ ويحكي بسخرية عن الرايش الثالث، بينما كانت عيناه البنيتان الجاحظتان تلتمعان أحياناً بخبث ذكي. كان جيزلهر فيرز الصحافي، وهانس يوهست المسرحي، الذي كان يقرأ لنا من مسرحيته توماس بين، ضيفين عابرين في «بيت ألاسكا». أما بالنسبة إلى قريبي في الاسم المؤرخ بيرسي إرنست شرام وإليّ، وقد كنا على اتصال نشط خلال خدمتنا المشتركة في أركان القوات المسلحة، فإن هذا المعسكر الخاص كان ضربة حظ هائلة. أخيرا، كان هناك لقاء ودي مع مؤرخي البحرية الحربية الثلاثة، الأميرالات جلاديش،

وآسمان وشبندلر، ولقاء متجدد مع قائد شعبتي السابق في القيادة العليا للقوات المسلحة العقيد الدكتور كورت هيسه وزوجته السيدة في، التي كانت تعتني آنذاك بزوجها، الأعمى تقريباً.

خرجت من الأسر في تموز/يوليو سنة 1946. كنت الآن حراً، ولكن مثقلا بدين ثقيل هو تجاوز ماضي الحرب، التي جلست أمام منصتها وكأنني في مقصورة، على حد تعبير صديق لي. ثم وظفت عمرا كاملا على وجه التقريب في بحث وتفسير وإضاءة هذا التاريخ المعاصر. وأمعنت الفكر في ما عرفته أول الأمر في الأركانات العليا بين 1939 و 1945، ثم في بيت ألاسكا، قبل أن أجعل منه أساس هذا الكتاب. بيد أنني أتذكر بامتنان خاص رجلاً أفهمني الطبيعة الروسية، هو جنرال الفرسان إرنست كوسترينج، الذي كثيراً ما التقيته وحاورته في السنوات اللاحقة، بما أنه سكن بعد الحرب في شيمجاو. كان سترونج يرى كارثة 1945 على النحو الآتي: كان هتلر وستالين متشابهين، وكانا عنيفين ومطلقين ساما شعبيهما مر العذاب. لكنهما مثّلا كذلك تحديا بالنسبة إلى شعبيهما، المدعوين لتحرير نفسيهما من طغيانهما ـ ولتبادل المساعدة في كفاحهما -. لكن الألمان أضاعوا هذه الفرصة tsil l'l hgHk Hk التاريخية سنة 1941 في روسيا، فاستمرت الستالينية. وستمر مئة سنة قبل أن نعرف النتائج البعيدة الغور، التي نجمت عن ذلك ليس فقط بالنسبة إلى ألمانيا وروسيا، بل كذلك بالنسبة إلى الغرب، والحضارة، وتاريخ العالم، والمجتمع البشري.